نحو اللاتناهي في التاريخ

"حلم المجتمع المفتوح"

ميلاد خلف الله(*)

"إنما هذه المذاهب أسبابٌ لجلب الدنيا إلى الرؤساء"

أبو العلاء المعريّ

"شرح لزوم ما لا يلزم"

أ-تقديم:

إن شيئًا ما قد تغير مغيرًا معه كل ما حوله في كل بقاع العالم منذ اللحظة التي بدأ فيها إيقاع طبول الحرب العالمية الثانية بالارتفاع مهددًا وممهدًا لمذابح لم يشهدها التاريخ من قبل سواءً في شمولها أو وحشيتها، إلى جوار إهدارها لكل قيم الحضارة والعقل والمساواة والحرية والكرامة؛ وحتى إقامة جمهورية الصين وتدافع الهجوم على الدول الشرق-أوسطية مرورًا بحرب أفغانستان والعراق وحتى حرب إيران المنتظَرة.

هذه الأحداث معظمها إن لم تكن كلها-حين نتأملها-تمثل نقطة تحول في تاريخ العالم، فتغير العالم لا يحدث بشكل موضوعي منتظم بحت جراء تطور

(*). دراسات عليا- قسم الفلسفة- آداب القاهرة. evan_mill2000@yahoo.com

القوى الإنتاجية، أو مقتضيات مرحلة ثانية لثورة صناعية مقبلة، أو غيرها من أسباب يمكن تكميمها[1].

بل هو عملية تلعب فيها الإرادة السياسية دورًا رئيسيًا وفقًا للنماذج المركزية والمُعدة سلفًا فى معمل إنتاج الحكم الشمولى، والمتجاهلة لفرض أن التاريخ ما زال يحمل بداخله إمكانياتٍ لم تُستغل بعد، لكنها - أى الإرادة- تسعى فيما تسعى إلى تقديم نفسها كمعيار مطلق متعالٍ يقوّم من خلاله كل ما عداه باعتباره نظامًا مكتمل الأركان يرسُخ فى الواقع وفق الحتمية التاريخية والنبوءات القبلية، وليس كواقع تاريخى مرحلى يتحقق على التوالى[2].

لكنهم- أصحاب الإرادة السياسية - قاموا بإقصاء قوى السلب الجبارة من مجال التاريخ ولم يفلحوا فى الفكاك من أحبولة التفكير وفق النماذج المقدمة باعتبارها قمة ما يمكن أن تصل إليه المجتمعات كـ"نهاية للتاريخ".

٣. نهاية التاريخ ونهاية الإنسان:

إن لمفهوم "نهاية التاريخ" مكرًا، ويا له من مكر! فهو الذي أغوى المفكرين والسياسيين والشعوب لرسم خرائط لطبيعة العالم، وأشكال بيانية لتطور المسلك الاجتماعي للبشر، وصياغة كل ذلك في معادلات جافة موضوعية-أو هكذا يجب أن تظهر-يصير فيها الإنسان رمزًا في معادلة، أو حجر بناء في جدار، بلا قيمة فردية، أو فاعلية شخصية متميزة، وقام هذا التصور على صك البشر

(1). عبد الملك، أنور: تغيير العالم، عالم المعرفة، عدد٩٥، ١٩٨٥، صـ ٣٧.
(2). المصدر السابق.

عنوة ضمن قالب واحد، لا يُسمح لأحد بالخروج عنه وإلا اعتُبر خليةً سرطانيةً وجب استئصالها، واعتُبر تفرده ظاهرةً مرضيةً يجب علاجها.

ذلك أن هذا المفهوم السحري يحدد الغاية مع تحديده للنهاية، ومع تحديدها يصل العقل تلقائيًا وعن اقتناع إلى ما عليه تحقيقه في الحاضر طبقًا لتصوره عن المستقبل وحتي (نهاية التاريخ)، وعن طريق القوانين نفسها يصل العقل تلقائيًا وعن اقتناع إلى تفسير أحداث الماضي، وهكذا يتم إحكام القبضة الأيديولوجية على حاضر الإنسان بعد حصار ماضيه ومستقبله بتفريعات شائكة من هذه البذرة الخصبة المدمرة (نهاية التاريخ)، هذه البذرة التي يمكن اعتبارها بحق أصل ذلك السرطان الفلسفي: المذهب التاريخانيّHistoricism.

ومفهوم"نهاية التاريخ" رغم ردائه السياسى الحديث إلا أنه ليس بلا دلالة أو أصل كلاسيكى، فليس هناك مفهوم بلامستدعيات أدبية، وتاريخية، وجذورأيديولوجية، وعقائدية، فالسياسي أولًا يأتى ثم يستدعى المعرفي والثقافي لتكوين الأيديولوجى - الذى يُظهر نفسه كنتاج طبيعى لا ينتهى - لتفسيره وتبريره ليضرب بجذوره الأبدية فى الواقع[1]. وستتكشف فى هذه المقالة دوافع هدم الحضارة- بما هى نزوع لتحقيق ما هو إنسانى ومعقول، وسعى لإعادة ولادة التاريخ- ماثلة فى الجذور العميقة لبعض الثقافات والأيديولوجيات بدءًا من أفلاطون"الفيلسوف المقدس"، مرورًا "بهيجل" فيلسوف الدولة الأول،

(1). مبروك، علي: لعبة الحداثة، دار رؤية، ٢٠٠٦، صـ ١٤.

و"ماركس" وأتباعه من أصحاب الفلسفات الشمولية المغلقة[1]، انتهاءً بفوكوياما المبشر بالخلاص الكامن فى الديموقراطية الليبرالية الغربية خاتمة التاريخ، سينكشف مدى مساهمة مقولة (نهاية التاريخ) في صياغة هذه الأنساق المغلقة نظريًا، والتي أدت إلى الأنساق السياسية والاجتماعية الشمولية عمليًا.

إن فهم عملية تغير العالم تتطلب دراسة البنى الفوقية والقوى العاملة على تغيير العالم، فبعضها يعمل لأجل توسيع رقعة التحرر، والآخر لإخضاع عملية التغيير نفسها إلى هيمنة المركز الواحد، وزيادة الإشكال تتطلب نوعًا جديدًا من التحليل والتفكيك لفهم على أى وجه سيكون النموذج الشمولى الخارج من رحم النظام العالمى الجديد، فعلى الرغم من أن القليلين هم الذين ينشئون السياسة إلا أننا جميعًا لقادرون على الحكم عليها كما قال"برقليس".

٣. نماذج من الأنساق الشمولية:

ينقسم المفكرون كما يرى"أشعيا برلين" إلى نوعين"قنافد وثعالب" الثعالب هم الذين يبحثون عن غايات كثيرة لاترتبط فيما بينها فى غالب الأمر، بل قد تكون متناقضة ومرتبطة فقط بطريقة واقعية لا بمبدأ أخلاقى أو جمالى؛ أما القنافد – ونحن معنيون بدراستهم هنا- فهم الذين يربطون كل شيء برؤية واحدة أساسية، وبنسق واحد، وفى حدوده ومن خلاله يفهمون ويفكرون ويشعرون....ذلك لأنه يتفق لدى العقل تشبيه نوع من السجن بنوع آخر منه؛

(1). بوبر، كارل: المجتمع المفتوح وأعدائه، دار التنوير، ترجمة السيد نفادى، ١٩٩٨، الفصل الأول.

وتـــشبيه أى شيء يوجد حقيقة بشيء غير موجود! كل ذلك وفق أفكاره الأولية القبلية التي ينطلِق منها.

عندما تصارعت السلطات، وزاد خطر السوفسطائين، وتوجهت الأنظار إلى كرســـي السلطة لامتلاك "الكلمة" صمم"أفلاطون" فى جمهوريته نموذجًا مكتمل الأركـــان- حسب نظره- ليقدمه لأى حاكم ولا يبقى سوى تنفيذه دون الرجوع إلى نشأته أو سياق إنتاجه، فبسأمه من الديمقراطية التى توصِل الغوغاءَ للحكم، والتـــى قـــضت على أستاذه، أراد إقامة مجتمع أرستقراطى إستاتيكى، فالتغير شـــرير والـــسكون مقـــدس والمجتمع لا يتقدم إلا إذا"بقي كلٌ فى مكانه" مؤديًا وظيفـــته التى وهبته إياها الطبيعة على أكمل وجه فيتم التوازن الهيراركى بلا تقهقر أو تطور فى أحسن الأحوال، فقوى النفس الثلاث يقابلن الفضائل الثلاث لينتهـــين فى الطبقات الثلاث دون تجاوزات، وبتكافئهم تتم "العدالة" فى العالمين الأصـــغر والأكبـــر، ذلـــك ليصبح الحكام فلاسفة أو الفلاسفة حكامًا فى أفضل الأحـــوال، وأفلاطون من زمرتهم دون شك! لكن نموذجه رغم إحكامه رُفض، إلى حد بيْع صاحبه كعبد من قِبل طاغية سيراكوز الذي قدّمَ النموذجَ له[1].

إن نهايـــة الـــتاريخ-رغم عدم استخدام أفلاطون لهذا المصطلح-هي ذلك الـــتوازن فـــي حال الثبات الأبدي، وفي سبيل التوازن المنشود يمكن بل يجب إزالة جميع الزوائد والنتوءات البشرية وغير البشرية.

---

(1). المرجع السابق: الفصل الرابع صـــ ٤٧.

أمـــا المـــذاهب الدينية فقد استخدمت ذلك المفهوم بدورها ضمنًا على هيئة التـــصور النهائـــي-مـــن منظورها-لخاتمة الحياة البشرية على الأرض أو في الـــسماء، فـــنجد المسيحية ديانةً رافضة للاندماج فى الواقع السياسى، تاركةً ما لقيصر لقيصر، بل إن التزاوج القسرى بينها والدولة الرومانية فى ق٤م قد آل إلـــى الفـــشل، ليحوّل"أوغسطين" النظرَ إلى النهاية -الغاية- فى مدينة الله التى تتآلف من"مجموعة كائنات عاقلة يجمعها حب الشيء نفسه" (أي:الله) ومنهم يتم اكـــتمال جسد المسيح من خلال أعضائه المتجلية فى الواقع على مر العصور، وبالتالـــى فهى ليست مدينة ذات بنايات ونظم وجيش بل هى فكرة مفارقة وإن تجلـــت تعيناتها المكونة لها، وهذه النهاية (اجتماع أعضاء البدن الواحد)هو ما تجـــسد فـــي شمولية المذهب الكاثوليكي حيث تعني Cathos الكنيسة الشاملة، وبالتالـــي العقـــيدة الـــواحدة التي يجب في سبيل وحددتها ووحدانيتها استبعاد الخصوم النظريين.

واخـــتلفت الـــرؤية من قِبل الإســـــلام الذى جاء ومعه التزاوج التام بين الـــدين والدولـــة كتوأم ملتصق الأعضاء حتى النسيج الداخلى، فلا يمكن فصل أحدهما عن الآخر إلا وتعرض أحدهما أو كلاهما للموت المحتوم، وكأنهما على حـــد تعبيـــر الفلاسفة المسلمين"يدوران معًا وجودًا وعدمًا" وهو ما جعل بعض الاتجاهـــات تعتبر أن نهاية التاريخ هى تحقق الشريعة في الأرض كما تحققت في صدر الإسلام، ونتج عن ذلك سوء فهم لحقيقة الشريعة وإغفال لمقاصدها، وبالتالي إخراجها من سياقها التاريخي.

فـــى القـــرن التاســـع عـــشر الميلادي قرن اليوتوبيات والنماذج الشمولية والطموحات الاستعمارية الساعية للكوكبية، جاء رجل الدولة البروسية "هيجل" ممجـــداً الدولة وأنظمتها الحاملة للقيم الكونية القائمة على التمزق والاندماج فى صيرورة باطنية لخلق جديد داخل الإطار الشمولى للفكرة الكلية[1]، فكان مذهبه أعتـــي مذاهب الشمولية المثالية الألمانية، والذي ربما مهد للحكم الهتلري الذي طـــبق أسلوب البرمجة النظامية الكلية للدولة، ففي نسق هيجل ليس الإنسان إلا موجودًا من الموجودات، وترسًا في آلة كبرى هي المجتمع المغلق، وفكرةً في النسق الشامل لفلسفته.

قـــُلبت المثالية المطلقة الهيجلية إلى المادية الجدلية على يد "ماركس" الذى قـــسم الـــتاريخ إلى عدة مراحل تكللها الشيوعية بثورة العمال المستَغَلين على الرأسمالية، فكان يفكر وفق دارونية البقاء للأصلح، فبحث عن عدو ضمنه كل الكـــراهية والهيمنة لتبرير الثورة عليه، والانتهاء لأضغاث سيطرته من خلال الـــصعود بالإنـــتاج، وتقـــسيم كل شيء بالتساوى اقتصاديًا لدعم البنية التحتية للمجـــتمع، فكـــان اندفاع الثورة الروسية التى تريد أن تغمر العالم لنشر السلام والأخوة بين الأمم، وتجعل كل شيء مختلفًا لنشر حياة عادلة مرحة[2]، وكانت نهايـــة الـــتاريخ من منظوره هي سيادة مجتمع الشيوعية المتحضرة، ولما كان تـــاريخ الإنسان يتحرك من مستقبله فقد صِيغت القوانين العلية لتخدم هذه الغاية

(1). ســـتيس، والتـــر: هـــيجل، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٠، صـــــ٥٩٦.

(2). جاكوبى، راسل: نهاية اليوتوبيا، عالم المعرفة، عدد ٢٦٩، ٢٠٠١، صـــــــــ١٨٤.

بالـذات، ولضمان حصولها اكتسبت تلك القوانين حضورها الحتمي فيما عُرف بالاشـتراكية العلمـية، وفـي إطـار هذه القوانين تم تفسير المركب الإنساني كموضوع للعلم الطبيعي، فأفقده هويته الخاصة.

أمـا "فوكـوياما" حامـل مانفستو العمل الأمريكى فقد جعل محور اهتمامه انتـصار الرأسمالية الغربية، وجعلها الضامن لعدم قيام الحروب، ونشر السلام والإخاء بين الشعوب، فهى الحلف الطبيعى لا الوضعي - كما يرى- للولايات المتحدة، مخلوقة على صورتها بقبول دولة الرفاه، وتفضيل التعددية السياسية، وتـشجيع الاقتـصاد المختلط، واعتبر أن انتصار الغرب قد تم بسبب الإنهاك الكامل لأى بدائل منظمة غير قادرة على الحياة الليبرالية، ومنه يتبلور ويتشكل الـنظام العالمى الجديد القائم على مجاوزة القوميات الصغيرة والعصبيات التى تقف عائقًا أمام التقدم العالمى، فالنظام الجديد لاشرقى ولاغربى، بل عالمى، أو بالأحـرى كوكبـى، وعليه يتطلب الأمر نظامًا اقتصاديًا جديدًا ونظامًا تربويًا جديدًا ودينًا عالميًا جديدًا يحقق رباعية المستقبل الآتى" الكونية - التداول الحر لـرأس المـال - الإبـداع - الاعتماد المتبادل"[1] فالليبراليون يسعون لإقامة مؤسـسات وسياسـات اجتماعـية على نحو يعمل على تفعيل وتنمية الصداقة المدنـية، والإحـساس بوجـود هـدف مشترك من خلال جهات التعلم متعددة الجنـسيات، والتـى تقـوم على أطر مرجعية متباينة تقوم بطمسها فى هيولى واحـدة.. وسـيمجدون خطابًا عامًا حول الهوية المشتركة والشاملة فمن خلال

(1). وهبة، مراد: المعجم الفلسفى، دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨، صـــــ ٦٩٨.

أجندته السياسية يسعى – النظام العالمى – لإقامة مؤسسات قادرة على السيطرة على الاقتصاد العالمى وتنمية الهويات المدنية الضرورية لصيانة هذه المؤسسات، وإمدادها بالسلطة المعنوية التى تتطلبها، وكل هذا وغيره من خطط شمولية راجعة لنشوة"فوكوياما" بسقوط الاتحاد السوفييتى و الانتصار فى الحرب الباردة[1].

٤. خاتمة نقدية:

لقد أتى أفلاطون وهيجل وماركس وفوكوياما – وسيأتى غيرهم – إلى البشرية بنماذج شمولية دولية والتى وإن تغيرت ملامحها وزركشاتها الخارجية إلا أن آلياتها المنتجة لها واحدة، وهي طمس الهوية الفردية والقومية لتصلح لكل زمان ومكان، وليس النموذج العالمى الجديد إلا شكلًا سياسيًا واقتصاديًا واستراتيجيًا تنتظم فى إطاره قسرًا وحدات وأنماط بشرية يفرقها ويميزها تباين كبير.

فالمسألة هنا هى تجاهل قوى السلب التاريخى وفرضية تطور المجتمعات طبقًا لنظام منطقي يمكن تعقله والكشف عنه، وهو ظن خاطئ أدى لسقوط الرؤى اليوتوبية التى بشر بها كل هؤلاء ذات يوم، فقد نسى فوكوياما أو تناسى أنه يصوب البنادق إلى رؤوس الشعوب النامية ويقول لهم تصرفوا وكأنكم مررتم بتجربة الاستنارة الغربية... تصرفوا كما لو أن ٩٥% منكم متعلمون.... تصرفوا كما لو أنه لا توجد بينكم صراعات عرقية دامية....

(1). جاكوبى، راسل: مرجع سابق، صـ ٣٠.

تـصرفوا كمـا لـو أنكم لا تفتك بكم المجاعات والكوارث...تصرفوا وكأنكم مؤمّنون بنظم حكم عادلة..!!

نعـم هو يريد تطبيق نموذجه متجاهلًا توافر الأليات المنتجه له، والواقع أثـبت زيـف دعـاوى"فوكوياما" فمازالت بعض الدول تئن تحت وطأة الحكم الديكتاتورى العسكرى والاستبداد السياسى، بل والرأسماليةِ الغربيةِ نفسها، تلك التـي أيـضًا بـدأت تـتحول هويتها، ففى دارها تطورت طبقة من المتعلمين الممـسكين بزمام الحكم، والذين بمجرد إبداء آرائهم تتحرك المدرعات وتتوالى الحروب لأجل تحقيق مصالح تلك الطبقة فى تلك المنطقة أو غيرها، وتتطورت الديموقراطية الليبرالية إلى أوليجاركية الصفوة.

إن نقْـد النزعة التاريخانية والتى تقوم على التوقع والتموضع يجعل الفرد يفكـر فـى مجـتمع مفتوح بلا قيود ولا نمذجة، قال أحد المفكرين ذات يوم: "خطـران ما يزالان يهددان العالم: لنظام والفوضى.. وأنا أميل الى الفوضى" نعـم فالفوضـى قد تخلق حالة من الميوعة واللاتحدد يمكن من خلالها وضع أشـكال تقـبل كافـة التغيرات دون أن تكون نهايتها محتومة، ودون أن يكون مصير الإنسان بأسره في قبضة واحدة.

"فالعظماء يعودون إذا استدعيتهم من ذاكرة التاريخ
لتسيطر عظمتهم فوق البسطاء
والبسطاء يعودون إذا استدعيتهمو من ذاكرتك
ليكونوا متنزّه أقدام العظماء
ولذلك خيرٌ أن ننسى الماضى

حتى لا يحيا فى المستقبل
حتى لا يخدعنا التاريخ
ويكرر نفسه..
يكرر نفسه"[1].

(١). صـــلاح عـــبد الـــصبور: مـــسرحية مسافر ليل، الأعمال المسرحية، المجلد الثانى، دارالعودة، بيروت، ١٩٧٧